

المجتمعات الافتراضية.. ملاذٌ واقعيٌّ للمطالبين بالحرية

إعداد الباحثة: مروى ماي

سنة رابعة دكتوراه إعلام

جامعة قسنطينة 3

ملخص:

يُعدّ الإعلام من القوى الاجتماعية المؤثرة التي تضطلع بوظيفة بالغة الأهمية في سياق التحوّل الديمقراطي، ولأن ما اصطلح عليه اليوم بالإعلام الجديد قد جمع بين القدرة على التأثير ومساحة الحرية الواسعة؛ فقد بات بالفعل أداة الشعوب في التلويح وتهديد الحكّام، إلى جانب تعبئة الرأي العام وتشكيله.. وبعد اجتياز الحديث عن ظهور المجتمعات الافتراضية وتأثيراتها الاجتماعية، أصبح التركيز منصّباً على أدوار تلك المجتمعات السياسية البارزة التي جعلت قضاياها تنتقل تدريجيّاً للعالم الواقعي بدل أن تظلّ حبيسة الافتراضيات؛ والثورات العربية التي مسّت المنطقة هي خير دليل. ومع تضارب الرؤى حول دور شبكات العوالم الافتراضية وتأثيراتها السياسية الحقّة، ستتناول هذه الورقة البحثية إضاءات حول المجتمعات الافتراضية بأبعادها، لنُلقي بذلك الضوء على بعض النقاط التي جعلت من تلك الشبكات عنصراً مهماً في الثورات من خلال إسقاطات وقراءات مهمّة.

Abstract :

The media is one of the important Social forces that affects even the democratic transition of any society, and because what we called now new media has gathered between the power of influence and the large space of freedom, it becomes indeed the people's tool to threat their responsables, and mobilized the public opinion.. and after we get through talking about the apperance of virtual socities and their social effects, we now focussed on their politic roles that makes its issues moved to the reality world rather than stay trapped the virtualisation; and the last Arab revolutions are the best example. But with the conflicting about the role of social networking and its political effects, we're going to highlight few sides about virtual societies in that paper to spot their roles in some revolutions.

تقديم:

أحدثت ثورة تكنولوجيا الاتصال والمعلومات في السنوات القليلة الماضية تغييرات نوعية في العديد من أوجه الحياة، حيث مهّدت الطريق للانتقال من المجتمع الصناعي إلى مجتمع المعلومات، وأخذت هذه الثورة تترك آثارها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية على المجتمع المعاصر بشكل غير مسبوق كمّا ونوعاً.

وتمثل شبكة المعلومات أحد مظاهر ثورة المعلومات فهي تؤدي دوراً أساسياً في صياغة الأنشطة الرئيسية للإنسان في شتى نواحي الحياة، فأصبح من خلالها إزالة حواجز الزمان والمكان أمراً ممكناً.

ومع نهاية القرن العشرين وبداية الألفية الجديدة أصبحت شبكة الإنترنت بصفة خاصة همزة الوصل بين دول العالم والمحرك الفعال لمختلف الأنشطة والمجالات لجميع فئات المجتمع على المستوى العالمي، وقد شهد العالم زيادة مطردة في أعداد مستخدمي الإنترنت؛ حيث تعيش المجتمعات الإنسانية اليوم ثورة معرفية وتكنولوجية غير مسبوقة سببها التطورات الراهنة في وسائل الإعلام الجديد التي أفرزت نمطاً اتصالياً جديداً له سمات تختلف عن سمات القنوات الاتصالية التقليدية، وهو ما يسمى بالاتصال الوسطي الذي يتسم بسمات كل من الاتصال الشخصي المواجهي والاتصال الجماهيري وله وسائله الاتصالية الخاصة، إذ له من سمات الاتصال الشخصي قلة عدد المشاركين وإمكانية السيطرة على الموقف الاتصالي والتفاعل الثنائي فكرياً وإمكانية إظهار رد الفعل فوراً، كما له من سمات الاتصال الجماهيري عدم تجانس المشاركين فيه من حيث السمات والبعد المكاني وفورية الرسائل ومن هنا ظهر مصطلح الاتصال الوسطي.

وبهذا أعادت الانترنت تشكيل النماذج التقليدية في ممارسة التفاعل البشري، فرغم اعتبار الاتصال المواجهي Face to Face Communication هو أكثر الأساليب الاتصالية فعالية، إلا أن الدراسات الحديثة أظهرت أن الانترنت كوسيط هي أداة فعالة للاتصال الشخصي، بل وتستخدم كأداة هامة في المشاركة والتفاعل اللحظي في كثير من المواقف ومناقشة موضوعات ليس من المريح التحدث فيها وجهاً لوجه...

وهكذا أخذ هذا النوع المستحدث من الاتصال يتغلغل أكثر في كل مناحي الحياة ليتحول الشخص إلى فرد افتراضي يتفاعل ضمن مجتمع افتراضي، وأصبح لهذا النوع من الاتصالات دوراً فاعلاً في مختلف المجتمعات حيث سهّل التواصل بين الأفراد، ليصبح بذلك نقطة تحول هامة في مجال الاتصال الاجتماعي.

ومع ظهور الجيل الثاني للإنترنت الذي أتاح إمكانيات جديدة في الاتصال عبر الشبكة من خلال مواقع الشبكات الاجتماعية زاد الاهتمام بالإنترنت كظاهرة مجتمعية لديها الكثير من الآثار النفسية والاجتماعية التي تؤثر على الأشخاص الذين يقضون وقتاً أكبر على الخط المباشر مخصّصين بذلك وقتاً أقل للأشخاص الآخرين في حياتهم الواقعية. ويظهر الدور الكبير لهذه المواقع من خلال تجسيدها لمفهوم الاتصال الواسطي ومساهمتها في بناء الشبكات الاجتماعية الافتراضية؛ ومن بينها موقع "تويتر"، "فايسبوك"، "ماي سبيس" وغيرها... فظهرت على إثرها العلاقات الافتراضية والهوية الافتراضية وغيرها من "الافتراضيات" التي تسعى لمحاكاة الواقع وبالتالي للتأثير بشكل كبير على طبيعة العلاقات السائدة والتي كانت دائماً اللحمة التي تربط أفراد المجتمع بعضهم ببعض.

1. مفهوم المجتمع الافتراضي:

ظهرت المجتمعات الافتراضية على الخط on line communities في بداياتها بفعل احتياجات التعليم واستخدام تكنولوجيا الحاسوب والاتصالات الرقمية منذ منتصف ثمانينيات القرن الماضي، ثم انبثقت بعد ذلك ما عُرف بالمجتمعات الشبكية networked communities مع تقريبا أوائل التسعينيات حيث تطورت في شكل جماعات معروفة من مستخدمي الإنترنت تشترك في الخصائص والاحتياجات والمهارات، ثم انتشرت هذه المجتمعات الرقمية بانتشار تكنولوجيا الويب.¹

فقد نجح الفضاء الرمزي الذي شكله الإنترنت في الجمع بين أفراد ينتمون إلى هويات مختلفة، ويعد هاورد رينجولدHaward Rhingold من الأوائل الذين ساهموا في توجيه نظر العالم صوب دراسة المجتمعات الافتراضية وقد جاء ذلك في كتابه الجماعات الافتراضية Virtual Community عام (1993) والذي يؤكد فيه بأن هذه الجماعات هي تجمعات اجتماعية تشكلت من أماكن متفرقة في أنحاء العالم يتقاربون ويتواصلون فيما بينهم عبر شاشات الكمبيوتر والبريد الإلكتروني، يتبادلون المعارف فيما بينهم ويكونون صداقات حيث يجمع بين هؤلاء الأفراد اهتمام مشترك ويحدث بينهم ما يحدث في عالم الواقع من تفاعلات ولكن ليس عن قرب، وتتم هذه التفاعلات عن طريق آلية اتصالية هي الإنترنت الذي بدوره ساهم في حركات التشكل الافتراضية.²

إن الشكل الجديد للتفاعل الذي طرح له Rhingold -وكان أول من كتب عنه- هو نظام الدردشة على الإنترنت؛ ويتم ذلك من خلال تبادل الحديث والمشاركات عبر الكمبيوتر وهذه التفاعلات لا يشترط أن تكون عن طريق الوجه بالوجه بل تحدث في اللحظات التي تتم فيها الدردشة بدخول أكثر من طرف في تفاعل آني عبر الإنترنت، إلا أن هذا لم يكن هو

¹ بايوسف مسعودة: الهوية الافتراضية: الخصائص والأبعاد - دراسة استكشافية على عينة من المشتركين في المجتمعات الافتراضية، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، عدد خاص، ص 468.

² وليد رشاد زكي: المجتمع الافتراضي. نحو مقارنة للمفهوم، أبريل 2009، digital.ahram.org

الخط الوحيد لتجمعات الإنترنت الافتراضية فهناك تفاعلات اجتماعية فائقة لا تتم في نفس اللحظة ولكن تتم عن طريق البريد الإلكتروني¹. وقد أطلق Ronlido A- Beghetto (2001) على التفاعلات التي تتم داخل التجمعات الافتراضية "اتصال إلكتروني تفاعلي" يضم هذا الاتصال أفراداً متنوعين يشتركون في نفس الأفكار والأنشطة. وعلى الرغم من أن هذه الاتصالات تفاعلية إلا أن المشتركين في هذه التفاعلات هوياتهم غير معروفة، فالفرد في التجمعات الافتراضية يتنكر في أكثر من شخصية ويستطيع الفرد بذلك أن يعيد نفسه في ذات الجماعة بأكثر من هوية وهذا هو الجزء الذي يقف تحدياً أمام دراسة هذه التجمعات².

إن أهم ما يميز هذه التجمعات الافتراضية هي أنها متاحة للأفراد الذي يريدون المشاركة في أحد أنماطها، فالمدينة الافتراضية على حد قول البرتا روبرت Alberta Ropert وميشيل جينكنسون Jenkinson Michael مدينة لا تنام. فهناك دائماً أفراد مشتركون في التفاعلات الافتراضية حتى في منتصف الليل -ولا غرابة في ذلك- فلقد أصبح الإنترنت بشكل عام جزءاً من حياة الناس، والجماعات الافتراضية بأنماطها المختلفة باتت تشكل أهمية للعديد من المهتمين بالإنترنت على وجه خاص وذلك ما دعا ماريا باكردجيفا Maria Bakardjieva إلى أن تعلن أن الحاسوب أصبح أسلوب حياة وذلك في الفصل الذي أعدته بعنوان التكنولوجيا في حياتنا اليومية Technology in everyday life³.

وقد تنوعت التعريفات حول مفهوم الجماعات الافتراضية من ذوي التخصصات المختلفة ما بين مهتمين بعلوم الحاسب والاتصالات ومهتمين من علماء الاجتماع ورجال السياسة وقد عرف المفهوم عمرو الجويلي "بأنها جماعات تشكلت إثر الثورة المعلوماتية التي أتاحَت الفرصة إلى تقليص التباعد الجغرافي مما أتاح الفرصة للاتصال بين أفراد يقعون عبر مسافات متباعدة يجمع بين أفرادها نوع من الإحساس بالولاء والمشاركة"⁴. وعرفها Jonathan Layzer "بأنها تجمعات تشكلت من خلال شبكة الإنترنت لا يقطن أعضاؤها في بوتقة جغرافية واحدة ولكنهم موزعون في أنحاء مختلفة ومنتشرة حول العالم يجمع بين هذه التجمعات اهتمامات مشتركة ومختلفة وتتعدد أنماط هذه التجمعات ما بين تجمعات تجارية وتجمعات طبية وتتسع لتشمل أنماط أخرى متعددة"، ويرى EV. Brenner أن "مفهوم الجماعات الافتراضية هو مفهوم مركب يشير إلى علاقات تظهر بين الأفراد الذين يتشاركون عبر الإنترنت وقد استغل هذا المجتمع التقنيات الإلكترونية وأدواتها في تحقيق وتنفيذ مشاركات اجتماعية". وقد طرح بريئر (Brenner)

¹ Mathewj Smith , Community Building Strategies in online fanzines , journal of Popular culture .87 vol 33 , issue 2 , 99, P

² معن البرازي: البحث عن نموذج تواصل الربيع العربي، 2014/2/4: www.academia.edu

³ وليد رشاد زكي: المجتمع الافتراضي. نحو مقارنة للمفهوم، مرجع سابق.

⁴ نبيل علي: الثقافة العربية وعصر المعلومات: رؤية لمستقبل الخطاب الثقافي العربي، عالم المعرفة، عدد 265، 2001، ص 105.

هذا المفهوم في المؤتمر السنوي الذي عقد في لندن في سبتمبر 2001 والذي كان موضوعه Virtual Community. وعرفها نبيل علي "بأنها تجمعات اجتماعية تجمع بين أصحاب الاهتمامات المشتركة وأهل التخصص الواحد وأصحاب الرأي وجماعات السمر والدردشة وتبادل المعلومات والنوادر ويمكن لأي عضو في هذه الجماعة أن يثبت حديثه لجميع أعضائها دون استثناء أو يختص فريقا منهم أو يسر لفريق بعينه ما يريد أن يحجبه عن الآخرين ويمكن للعضو أن يقدم نفسه تحت أسماء مستعارة بل ويمكن أن يتنكر العضو في شخصيات متعددة".

وعرفها بسويوني إبراهيم حمادة "على أنها تجمعات اجتماعية تظهر عبر شبكة الإنترنت تشكلت في ضوء ثورة الاتصالات الحديثة، تجمع بين ذوي الاهتمامات المشتركة يتواصلون فيما بينهم ويشعرون كأنهم في مجتمع حقيقي".

- من خلال الطرح السابق للمفاهيم التي تتعلق بالجماعات الافتراضية تجدر الإشارة إلى أن هناك اتفاقا حول الآتي:
1. الجماعات الافتراضية تشير إلى تجمعات اجتماعية لا مكانية بمعنى لا يشكل أعضاؤها تجمعا مكانيا فلا يجمع بين أعضائها إطار جغرافي ولكن هذه التجمعات تنطلق لتشمل أفرادا ينتمون إلى هويات وقوميات مختلفة.
 2. ثمة وسيلة تجمع بين أعضاء هذه الجاليات التي تنتشر في الفضاء الرمزي وهي الشبكة الدولية للمعلومات.
 3. هناك اهتمامات مشتركة بحيث يشترط لعضوية الفرد في إحدى الجماعات الدخول إلى موقع الجماعة التي تتفق واهتماماته بحيث يتقابل مع أعضاء آخرين من نفس الاهتمام بشكل مستمر أو متقطع.
 4. يمكن لأي عضو في الجماعة أن يدخل في مناقشات مع فرد واحد أو أكثر في مضامين تتفق واهتمامات الأفراد كما يمكن للفرد أن يشارك في أكثر من جماعة على حسب ميوله واهتماماته.

من خلال هذه الرؤية السابقة يمكن القول أن هناك تقاطعات بين المجتمعات الحقيقية والمجتمعات الافتراضية، إذ أنه في الغالب يحدث بين المتفاعلين افتراضيا مثلما يحدث في الواقع الحقيقي ولكن ليس عن قرب. ويستطيع المنخرط في هذه التفاعلات أن يتجه بالحديث في الواجهة التي تتناسب مع اهتماماته واهتمامات المتشاركين معه في ذات الجماعة، كما تتيح هذه التجمعات حرية قد لا تكون متوافرة في الواقع المعاش مثلما هي في الحيز الرمزي.¹

2. خصائص المجتمعات الافتراضية:

نتيجة للتطور التكنولوجي وتعقد الحياة وتعموم الأشياء، خلق الإنسان لنفسه مجتمعا آخر هو المجتمع الافتراضي الذي له من الخصائص المتشابهة نسبيا مع خصائص المجتمع الحقيقي المادي. وقبل التعرف على خصائص المجتمع الافتراضي لابد من المرور بخصائص المجتمع الحقيقي وهي:

¹ وليد رشاد زكي: المجتمع الافتراضي. نحو مقارنة للمفهوم، مرجع سابق.

بدءًا بالبقعة الجغرافية التي لها حدود سياسية، يشتمل المجتمع على عدد كبير من الأفراد والتجمعات حيث لا يمكن أن يتشكل مجتمع من دون الناس، ويشترك أفراد المجتمع الواحد بلغة ورموز تميزهم عن المجتمعات الأخرى، ومجموعة من العادات والأعراف والتقاليد والقيم، ويتعرض الفرد عند مخالفتها للعقاب الاجتماعي، ولكل مجتمع مجموعة من الأنظمة والقوانين واللوائح الرسمية التي على الأفراد الالتزام بها ومخالفتها يعرضهم للمساءلة القانونية، ويرتبط الأفراد بعلاقات اجتماعية رسمية وغير رسمية.. ومن خصائص المجتمع بأنه دائم التغير لا يثبت على حال، منها التغير البطيء والتغير التدريجي والتغير المفاجئ الذي يكون بسبب الحروب والثورات..¹

وتشارك المجتمعات الافتراضية رغم اختلافها في توجّهاها وطبيعتها عملها، مجموعة من الخصائص على النحو التالي:

- هناك غرض مشترك بين الأعضاء، قد تكون مصلحة أو اهتمام أو احتياج أو نشاطا معيناً، ويكون هذا الغرض هو الدافع الرئيس لانتمائهم إلى المجتمع الافتراضي.
- يخطر الأعضاء في مشاركات نشطة ومتكررة، غالباً ما تكون تفاعلات مكثفة وعلاقات اجتماعية.
- هناك حوار مشترك بين الأعضاء، تحكمه مجموعة من اللوائح والأنظمة التي يلتزمون بها.
- توافر المعلومات والخدمة، والدعم المعنوي للأعضاء فيما بينهم، وهناك وعي بحدود العضوية، وهوية الجماعة داخل أي مجتمع افتراضي.
- الاشتراك في إطار واحد من التقاليد الاجتماعية واللغة والبروتوكولات المتبعة..²
- لكل مجتمع افتراضي بناء اجتماعي، فالأعضاء لهم أدوار مختلفة، وتدرجات ومكانات اجتماعية يحصل عليها الفرد نتيجة للسمعة والإنجازات الفكرية والثقافية، مع وجود معايير للاشتراك في مجتمع افتراضي دون آخر..³
- ومن خلال استعراض خصائص المجتمع الحقيقي نجد أنها تنطبق على المجتمع الافتراضي ما عدا البقعة الجغرافية، إلا أن المجتمعات الافتراضية لها مكان محدد وهي شبكة الانترنت والتي يمكن اعتبارها المكان الذي توجد وتتكون به المجتمعات الافتراضية.

¹ جلال علي الأعرجي ورياب راسم كاظم: المجتمعات الافتراضية واقع جديد، لارك للفلسفة واللسانيات والعلوم الاجتماعية، العدد 8، 2012، ص 152.

² علي محمد رحومة: علم الاجتماع الآلي - مقارنة في علم الاجتماع العربي والاتصال عبر الحاسوب، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2008، ص ص 85-86.

³ Lee, Heejin & Varey : Richard, "A nalyzing Cultural Impacts of Computer-Mediated Communication in Organisations", research publications, C.Ess and F. Sudweeks (eds).Proceeding Cultural Attitudes Towards Communication and Technology, University of Sydney, Australia, 1998, p 322.

● سمات التفاعلات الافتراضية:

ومن سمات المجتمعات الافتراضية ومن توابعها أنها تنتهي إلى عزلة وانفراد، على ما تعد به من انفتاح على العالم وتواصل مع الآخرين. من العجيب أن المجتمعات الافتراضية وقد نشأت لأغراض شتى منها تخليص البشر من عزلتهم تنتهي بهم إلى عزلة جديدة عن عالمهم الواقعي. هذه هي المفارقة الكبرى في المجتمعات الافتراضية، مفارقة يلخصها عنوان كتاب لشيري تيركل Sherry Turkle هو كتاب: Alone Together: Why We Expect More from Technologies than from Each Other? لماذا أصبحنا ننتظر من التكنولوجيا أكثر مما ننتظره من بعضنا البعض؟

لقد نتج عن تطوّر المجتمعات الافتراضية حالات متفاوتة من الانقطاع عن العالم الواقعي وانهيار العلاقات الاجتماعية. لم يعد الناس يتزاوون كما كانوا يفعلون من قبل فقد أغنتهم الرسائل النصية القصيرة ورسائل البريد الإلكتروني والبطاقات الإلكترونية وما يكتبون ويتبادلون على الفيسبوك والبلاك بيري عن التزاور والمعايدة. من هنا لم تعد صورة الأسرة التي تعيش في بيت واحد بينما ينهمك كل فرد من أفرادها في عامله الافتراضي الخاص مجرد رسم كاريكاتيري، بل حقيقة مقلقة تحتاج مزيداً من الانتباه والاهتمام.¹

إن المتأمل لواقع التفاعلات الافتراضية يدرك أنها لا ترتبط ببنية أو هوية محددة كونها تتم من خلال وسيط إلكتروني وهو الانترنت، وفي هذا الشأن يمكن الخروج بمجموعة من السمات التي تميز هذا النمط من التفاعلات على النحو التالي:

1. **الانقطاع:** إن المتأمل لحقيقة التجمعات الافتراضية على تشكيلاتها المختلفة يدرك أن هذه العلاقات والانخراط المستمر فيها يؤدي إلى قطيعة على المستوى الاجتماعي، فهذه العلاقات الافتراضية تؤدي إلى انقطاع العلاقة مع الأصدقاء، الجيران بل ومع الأسرة أحياناً. وتستهلك وقت الفرد في علاقات تخرج به عن إطار العلاقات الفيزيائية لتسبح بالفرد في فضاء جديد هو الفضاء الرمزي. غير أن هذه النظرة المتشائمة تحدث عندما تتزايد التفاعلات الافتراضية لتتجاوز تفاعلات الفرد الواقعية.

2. **تعدد المراكز وتبادلها:** تتسم التفاعلات الاجتماعية على المستوى الافتراضي بتعددية المراكز وتبادلها؛ فهذه العلاقات لا مركز لها، كلها علاقات تخرج عن السيطرة فمن هم داخل الفضاء الافتراضي لا يوجد سلطة مركزية توجه الحديث بينهم، وكل فرد يستطيع أن يكون مركز الجماعة في أحيان كثيرة، أو يقود الحوار مرة أو مرات... هي تفاعلات لا يحتكرها شخص يهيمن أو يقوم بفرض سيطرته على الحوار. أي أن الجماعات الافتراضية كلها تفاعلات لا مركزية؛

¹ بهاء الدين محمد مزيد: المُجتمعات الافتراضية بديلاً للمجتمعات الواقعية - كتاب الوجوه (facebook) نموذجاً - جامعة الإمارات العربية المتحدة، 2014/1/21: www.abegs.org

فتبادل الأدوار وارد في هذه التجمعات إذ تسمح هذه التفاعلات بتعدد المراكز في الوقت ذاته، ومن هنا يمكن أن يكون للجماعة الافتراضية أكثر من مركز في موضوع الاهتمام الواحد وهذا المركز ليس حكرًا على فرد مهيمن ولكن يخضع للتبادل حسب رغبة الداخل في الحوار في معظم الأحوال.

3. الإخفاء: إن العلاقات الاجتماعية الافتراضية في معظمها تجمعات خفية مجهولة الهوية -إلا في القليل منها- فالفرد الذي ينخرط في هذه التفاعلات له الحق أن يخفي نفسه تحت مسميات مختلفة أو ينفصل عن هويته، وأحيانًا يدخل التفاعلات باسم مشهور من المشاهير، أو طائر من الطيور، وأحيانًا يدخل الذكور بأسماء الإناث والعكس، أو حتى بأسماء فكاهية... الخ. فهوية الفرد أو شخصيته تختفي في ظل هذه التفاعلات بل وتبتاين في قوالب عديدة، ولا يستطيع الداخل في هذه التفاعلات أن يعرف من الذي يتحدث إلى من...

4. التفكك: طرح جراي كراج Gray Krug في فصله المعنون بالتكنولوجيا كثقافة Technology as Culture "إن ابتكار الواقع الافتراضي وعوامله الإلكترونية أدى إلى تفكيك العلاقات الفيزيائية بين الأفراد" ويقصد بذلك أن تفاعلات الواقع الافتراضي التي تتم في إطار الإنترنت أثرت بدورها على تفكيك العلاقة بين التفاعلات التي تقوم على أساس الوجه بالوجه. فتشكل الفضاء الرمزي أدى إلى تفكك في العلاقات الفيزيائية بين الأفراد وتشكل نوع جديد من أنواع العلاقات الاجتماعية على المستوى الافتراضي، وتشير الدلائل الواقعية أن هناك مزيدًا من الاتجاه نحو التفاعلات الافتراضية وخاصة في ظل التحديات الطارئة على الواقع المعاش.

ولقد طرح ألبرت بورجمان Albert Borgman فكرة في هذا الصدد مؤداها أن حاسبتنا تبعدنا عن عالمنا حيث أن الإنترنت يلعب دورًا في التأثير على الأشخاص وذلك لأنه أتاح فرصة تكوين علاقات اجتماعية سهلة عبر فضائه، ساهمت هذه العلاقات في تفكك ما هو تقليدي من العلاقات الاجتماعية وتشكل ما هو افتراضي على المستوى العالمي؛ إذ أن هذه الجماعات لا ترتبط بهوية بذاتها أو قومية معينة ولكنها تجمع بين أفراد ينتمون إلى هويات مختلفة وقوميات متعددة، كل ما يجمعهم فقط هو اهتمامات مشتركة.

5. التمرد: لقد فتح الفضاء السيبري مجال جديد للتمرد والحركات الثورية والتحررية، إذا أن من ضمن تشكيلة التفاعلات الافتراضية تفاعلات تمردية؛ فالفرد يستطيع أن يقول ما يريد خارج الضوابط التقليدية للمجتمعات وخاصة في المجتمعات السلطوية، فلقد فتح الإنترنت مجالًا جديدًا للتفاعلات تقوم على الحرية وتخرج عن سيطرة الدولة. حيث المجال مفتوح في الفضاء الرمزي للاتفاق على الثورات أو التظاهرات من دون قيود المكان. ويدرك المتأمل لحركات التمرد على المستويات القومية أو العالمية أن الإنترنت وتجمعاته الافتراضية يشكل آلية رئيسية تساهم في تقارب المسافات والاهتمامات والاتفاق على مناهضة بعض القضايا أو المطالبة ببعض الحقوق.

6. الفردية: هناك نزوع في المجتمع الافتراضي وتفاعلاته إلى الفردية، ونقصد بها الانعزال عن السياق الاجتماعي المحيط بالفرد. فالفرد المنخرط في التفاعلات الافتراضية -حتى لو كانت جماعية- يدخل بوصفه فرد أمام شاشة

الكمبيوتر خاصته لتأخذه من عالمه الواقعي إلى عالم افتراضي. ويؤدي ذلك إلى ما يمكن تسميته عند التجاوز في هذه التفاعلات إلى نوع من أنواع الاغتراب وذلك في حال انفصاله عن واقعه الحقيقي.¹

3. كيف تتطوّر المجتمعات الافتراضية؟

يرى دي موور ووايجاند (2007) de Moor and Weigand أن تلك المجتمعات تمرُّ بمراحل أربعة هي مرحلة التأسيس والتجريب، ثمَّ مرحلة التدشين والانطلاق، ثم مرحلة النمو من الداخل ثم مرحلة النمو من الخارج. لنفترض مثلاً موقعاً للتواصل الاجتماعي بين مجموعة من المدرسين. سوف تكون البداية هي إنشاء الموقع وتجريبه على نطاق محدود، حتى إذا تيقن القائمون عليه من كفاءته أطلقوه. بعد ذلك ينضم مدرسون من خارج المجموعة إلى الموقع فيكون النمو من الداخل. قد يبقى الموقع مُغلَقاً على هذه الفئة من الناس، لكنَّ الغالب أن يفتح أبوابه لغير أفرادها فيكون النمو من الخارج، وتتزايد شعبية الموقع وشهرته وتتشعَّب أغراضه وغاياته.

وعبر مراحل تطوُّرها، تسعى المجتمعات الافتراضية إلى خلق ما يسميه المهتمون بهذا الشأن الشعور بالمجتمع أو الجماعة أو (SOC) sense of community من أين ينبع الإحساس بالمجتمع أو الجماعة؟ يوجز ماكميلان وتشافيز (1986) McMillan and Chavis العوامل التي ينشأ من خلالها هذا الإحساس فيما يلي:²

1. الشعور بالانتماء belonging إلى جماعة من خلال عضويتها ومتابعة ما يحدث فيها وسهولة التفاعل مع أفرادها وأحداثها.

2. الشعور بالقدرة على التأثير influence/ impact في تلك الجماعة أو المجتمع الافتراضي من خلال ردود الأفعال التي يتلقاها الفرد من بقية أعضاء الجماعة أو أفراد المجتمع الافتراضي، وكذلك التأثير بما يحدث في ذلك المجتمع.

3. تبادل الدعم support وإشباع الحاجات النفسية والشعورية والارتباط الوجداني بأفراد الجماعة من خلال تبادل التهاني والتعازي والمواساة والنصيحة وبطاقات المعايدة وما إلى ذلك.

4. الحضور والتواجد availability، وهما نقيض العزلة والغياب اللذين نتجا عن هيمنة القيم المادية وانشغال الجميع بتأمين أسباب الحياة. لا يُتصوَّر أن يبقى المرء طويلاً في مجتمع افتراضي ليس فيه من يتواصل معه فلا يُسمع فيه إلا صدى صوته، وهو ما يسبب لاحقاً عزلة وغياب عن العالم الواقعي.

¹ وليد رشاد زكي، مرجع سابق.

² بهاء الدين محمد مزيد، مرجع سابق.

5. **الثقة** trust لا يستطيع الفرد أن يشعر بالانتماء إلى جماعة أو مجتمع لا يثق في أحد من أفرادها ولا يشعر بالأمان فيه. من هنا تبقى المجتمعات الافتراضية في مجملها هشة ما لم تتأسس على علاقات سابقة في العالم الواقعي وما لم تحفظ سكانها من تطفل المتطفلين واحتيال المحتالين. لا بُدَّ أن يبذل أفراد المجتمعات الافتراضية جهداً مضميناً في التحقق من هويات من يتفاعلون معهم، ما لم يكن هناك سابق عهد أو "معرفة" على أرض الواقع، فعواقب الوقوع في براثن المحتالين قد تكون وخيمة. وفي سبيل الشعور بالثقة، يلجأ مستخدمو المواقع الاجتماعية وسكان المجتمعات الافتراضية إلى أصدقائهم في عالم الواقع. ومن أسباب الثقة انتماء الأفراد إلى مؤسسات معروفة حسنة السمعة، ومنها أن يكون هؤلاء الأفراد أنفسهم من الشخصيات العامة.

6. **الخلفية المشتركة** common background تزداد قوة العلاقات الافتراضية كلما تأسست على خلفية مشتركة في العالم الواقعي أو على اهتمامات وهوايات وميول مشتركة في العالم الافتراضي. لعلنا نلاحظ أن مواقع التواصل الاجتماعي والخدمات الإلكترونية يتجمع فيها الأفراد من الخلفيات العلمية والمهنية والتجارية المشتركة من منطلق أن "الطيور على أشكالها تقع". وقد تنشأ تجمعات افتراضية حول قضية أو "نجم" من نجوم الفن أو الرياضة أو حول مفكر أو عالم أو شخصية سياسية.

من الملائم هنا أن نلاحظ أن تحقق تلك الأسباب - أي أسباب الشعور بالمجتمع أو الجماعة - في العالم الواقعي يقلل من لجوء الأفراد إلى المجتمعات الافتراضية، فالذين تحفل حياتهم بالعمل والنشاط، ويعيشون حياة أسرية مستقرة، ولهم علاقات اجتماعية مثمرة ويشعرون بتعاطف المحيطين بهم ويحظون بالقبول في الواقع، لا يجدون كثيراً من الوقت للحياة في العالم الافتراضي.

ليس هناك ارتباط عكسي حتمي بين الاستقرار والعمل في الواقع وبين استخدام مواقع التواصل الاجتماعي، غير أن هناك ارتباطاً واضحاً بين الفراغ وعدم الإشباع النفسي والاجتماعي في الواقع والانهماك في الحياة في العالم الافتراضي...

4. العلاقة بين المجتمع الواقعي والمجتمع الافتراضي:

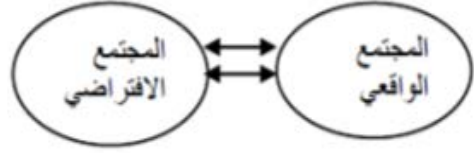
يرى العديد من الباحثين أن الحدود القائمة بين المجتمع الواقعي والمجتمع الافتراضي هي حدود وهمية أخذت في التلاشي، حيث عبّر الباحثون عن شكل العلاقة بين المجتمعين كالآتي:

العلاقة بين المجتمع الواقعي والمجتمع الافتراضي

شكل العلاقة الان



شكل العلاقة سابقا



يشير الباحثون إلى أن هناك مصطلحين يوضحان طبيعة كل من المجتمع الواقعي والمجتمع الافتراضي وهما: المكان والفضاء، ففي المجتمع الواقعي الأرض المادية هي مكان اللقاء (حيث اللقاء بالروح والجسد)، بينما في المجتمع الافتراضي نحن نلتقي عبر الفضاء الإلكتروني بأفكارنا وآرائنا فقط.

ويطلق الباحثون على المجتمع الواقعي مصطلح مجتمع الانطباعات الدافئة، بينما يطلقون على المجتمع الافتراضي مصطلح مجتمع الانطباعات الباردة كدلالة على أهمية لغة الجسد (الإيماءات، والإشارات.. الخ)، والتي لا تظهر في المجتمع الافتراضي، كما يطلقون عليهما أيضا مصطلحي "المجتمع المادي" و"مجتمع الظل".

إن المجتمعات الافتراضية تختفي بمجرد إغلاقنا لجهاز الكمبيوتر، لكن المجتمعات الواقعية تظل قائمة ومستمرة، وإن كنا نستطيع أن نحدد ميعاد أو زمان التواصل مع أفراد المجتمعات الافتراضية وفقا لشروطنا، فإننا لا نستطيع أن نفعل ذلك في المجتمعات الواقعية التي يكون التواصل فيها بين الأفراد عشوائيا في أغلب الأحيان.¹

الشبكات الاجتماعية.. أشهر المجتمعات الافتراضية:

من المفاهيم المرتبطة بالمجتمع الافتراضي، والتي ذاع صيتها بشكل يستدعي الانتباه، مفهوم الشبكات الاجتماعية. حيث يشكل المجتمع الافتراضي مجال نمو الشبكات الاجتماعية، ويشكل الفضاء المعلوماتي (Cyber Space) الحيز والإطار الذي يتم في سياقاته تجميع خيوط الشبكات الاجتماعية.

نجح الإنترنت في تسهيل التفاعلات الاجتماعية، ليس على مستوى الإفادة فحسب، ولكن على مستوى الشبكات الاجتماعية. فلقد عرّف السون وبويد الشبكات الاجتماعية بأنها "مواقع تتشكل من خلال الإنترنت، تسمح للأفراد

¹ علياء سامي عبد الفتاح: الانترنت والشباب: دراسة في آليات التفاعل الاجتماعي، دار العالم العربي، القاهرة، 2014، ط3، ص ص 42-43.

بتقديم لمحة عن حياتهم العامة، وإتاحة الفرصة للاتصال بقائمة المسجلين، والتعبير عن وجهة نظر الأفراد أو المجموعات من خلال عملية الاتصال، وتختلف طبيعة التواصل من موقع لآخر.¹

ولقد عُرِفَت الشبكات الاجتماعية بأنها "مجموعة من المواقع على شبكة الإنترنت، ظهرت مع الجيل الثاني للويب web 2 تتيح التواصل بين الأفراد في بنية مجتمع افتراضي، يجمع بين أفرادها اهتمام مشترك أو شبه انتماء (بلد - مدرسة - جامعة - شركة... الخ) يتم التواصل بينهم من خلال الرسائل، أو الاطلاع على الملفات الشخصية، ومعرفة أخبارهم ومعلوماتهم التي يتيحونها للعرض. وهي وسيلة فعالة للتواصل الاجتماعي بين الأفراد، سواء كانوا أصدقاء نعرفهم في الواقع، أو عرفناهم من خلال السياقات الافتراضية".²

"Social Networking": هي المواقع الإلكترونية التي توفّر فيها تطبيقات الانترنت خدمات لمستخدميها تتيح لهم إنشاء صفحة شخصية معروضة للعامة ضمن موقع أو نظام معين، وتوفّر وسيلة اتصال مع معارف منشئ الصفحة أو مع غيره من مستخدمي ذلك الموقع.. عبر الانترنت.³

أمّا تعريف "may field" فقد جمع فيه خصائص هذه المواقع التي عبّر عنها بأنها: مجموعة جديدة من وسائل الإعلام على الانترنت تشترك بالخصائص التالية:⁴

- 1. المشاركة:** فهي تشجع على المساهمات وردود الفعل (التعليقات) من أي مهتم، وتلغي الخط الفاصل بين وسائل الإعلام والمتلقين.
- 2. الانفتاح:** معظم مواقع التواصل الاجتماعي عبارة عن خدمات مفتوحة لردود الفعل والمشاركة، وتبادل المعلومات والتعليقات، ونادراً ما يوجد حواجز أمام الوصول إلى المحتوى والاستفادة منه، لأن حمايته لكلمة مرور أمر غير موجود نهائياً.
- 3. المحادثة:** تعتمد مواقع التواصل الاجتماعي على المحادثة باتجاهين، بعكس وسائل الإعلام التقليدي التي تعتمد مبدأ بث المعلومات ونشرها باتجاه واحد لجميع المتلقين.
- 4. التجمّع:** تتيح مواقع التواصل الاجتماعي إمكانية التجمع بسرعة والتواصل بشكل فعال ويربط تلك التجمعات اهتمامات مشتركة مثل حب التصوير الفوتوغرافي، والقضايا السياسية وغيرها.

¹ وليد رشاد زكي: الشبكات الاجتماعية. محاولة للفهم، 2014/1/21: digital.ahram.org

² مازن الصراب: مواقع الشبكات الاجتماعية وطريقة عملها، وحدة المعرفة، 15 أبريل 2013: www.aram.grp.com

³ خالد غسان يوسف المقدادي: ثورة الشبكات الاجتماعية، دار النفائس للنشر والتوزيع، الأردن، 2013، ط1، ص24.

⁴ عبد الله ممدوح مبارك الرعود، دور شبكات التواصل الاجتماعي في التغيير السياسي في تونس ومصر من وجهة نظر الصحفيين الأردنيين، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في الإعلام، جامعة الشرق الأوسط، 2011، ص 31-32.

● دور شبكات التواصل الاجتماعي والمشاركة بين الواقعي والافتراضي:

إذا كان المجال العام الواقعي يشكل بوابة للمشاركة في تفاعلات متباينة الاتساق والقوة فإن الإنترنت قد شكل مجالا عاما جديدا وهو المجال العام الافتراضي virtual public sphere، ولقد طرح يونج (Young 2005) إلى أن نمط الاتصال المتوفر من خلال الإنترنت شكّل فضاء جديدا يمنح الفرصة أمام تشكيل مجال عام، وعبر عنه على أنه مجال يعتمد على التبادل المجاني للأفكار والآراء بين المواطنين ويلعب دورا في هدم الأنظمة المغلقة. وفي موضع آخر يعرفه يونج أنه فضاء عام طبيعي ورمزي مكوّن من اتصال اجتماعي مركّب يفتح المجال أمام قمع النظم الاجتماعية التقليدية ويتّصف بأنه مجال تفاعلي يعتمد على المشاركة¹.

ولقد أشارت رايس (Zize Rissi 2002) إلى أن الإنترنت ساعد في تشكيل المجال العام البديل الذي يضم الأفراد الخارجين عن علاقات القوة والمهمّشين والمقصود هنا الأفراد الذين لم تمكّنهم امتيازاتهم من المشاركة في المجال العام الواقعي. ويتناسب ذلك مع ما طرحه Habrmas من أن المجال العام هو سعي مأسوي لرشد شبه مستحيل.²

من هنا يتّضح أن المشاركة في السياق الافتراضي هي تفاعل بين الأفراد أو المجموعات يتم من خلال وسيط الإنترنت وعبر المجال العام الافتراضي لمناقشة قضايا ذات طابع شخصي أو اجتماعي، يتمخّض عنها منفعة للأفراد أو الجماعات.

وكأداة لهذه المشاركة الفاعلة كانت شبكات التواصل الاجتماعي الوسيط الافتراضي المناسب؛ حيث لعبت أدواراً عديدة، أهمها سياسية واقتصادية واجتماعية في حياة الشعوب بكافة أنحاء العالم، وبات تأثيرها يتصّدّر أحداث الساعة نظراً لارتباط قطاع كبير من الأفراد بها حيث أصبح تأثيرها على النواحي السياسية واضحاً لدرجة أن الرئيس (أوباما) قد نجح في انتخاباته الرئاسية الأخيرة من خلال القاعدة الكبيرة التي حصل عليها عبر شبكات التواصل الاجتماعي.. عدا عن كون الأحداث الأخيرة في كلّ من تونس ومصر أكّدت الدور القوي لتلك الشبكات على الصعيد السياسي.

إن المشاركة عبر الشبكات الاجتماعية تتحرك على طرفين أولهما هو السياق الواقعي والطرف الآخر هو السياق الافتراضي، إذ أن المشاركة الافتراضية لا تتحرّك في سياق معزول عن المشاركات الواقعية بل تحركها دوافع أشهرها المنفعة أو المصلحة، استنادا إلى مقولة براون في أن المصلحة هي كلّ سلوك هادف، وقد تتحرّك من أجل المشاركة ذاتها على خريطة التفاعلات الواقعية. فالبعد الاجتماعي للمشاركة في الواقع سواء كانت هذه المشاركة على مستوى التفاعلات الضيقة أو المستويات الأوسع (المجتمع الأكبر) هناك ما يبرّرها. ولقد تمخّض عن الإنترنت (الشبكات

¹ Chang woo Young, the internet, alternative public sphere and political dynamism: Korea s non- gaek (polemist) websites, the pacific review, vol 81, no3 September, 2005. p396-399.

² Zizi Papache rissi, the virtual sphere, the internet as a public sphere, new media and society, vol 4, no1, 2002, p15-18.

الاجتماعية أساساً) علاقات ومشاركات لها ما يبرّرها وانتشرت عبر الفضاء المعلوماتي لتوافّر عدد من المقوّمات يمكن إيجازها في السياق التالي:

1. الحرية: لقد فتحت الإنترنت مجالاً للحرية يعبر من خلاله إلى تفاعلات قد يجد لها الأفراد أو الجماعات محاذير لها في الواقع. فعنصر الحرية شكّل مبرّراً للتفاعل خارج القيود والأطر التقليدية للمشاركة. والمتأمل واقع الشبكات الاجتماعية يجدها تزدهم بالعديد من التفاعلات، والتي قد لا يستطيع بعض الأفراد الخوض فيها داخل السياقات الواقعية. عنصر الحرية إذا يعدّ من أكبر المبررات للمشاركة عبر الانترنت.

2. مشاركة الاهتمامات: تنطبق هذه الوسيلة على ما هو واقعي وما هو افتراضي. فالأفراد لا يشاركون بإيجابية في تفاعل لا يتواكب مع اهتماماتهم. والمجتمع الافتراضي يستند بالأساس إلى هذه الفرضية بشكل أساسي بما قد يمثل ذلك مبرراً للاشتراك في تفاعلات يجد الفرد قبولاً لها. وتجدر الإشارة إلى أن المشاركة مع أفراد يشتركون في نفس موضوعات الاهتمام عبر الإنترنت هي فرصة سانحة لمن يمتلكون القدرة على التفاعل عبر الانترنت على تحقيق مشاركة فاعلة.¹

● تأثير شبكات التواصل الاجتماعي في النهوض الثوري والجماهيري:

أُطلق على الانتفاضات الجماهيرية والثورات الشعبية التي اجتاحت شمال إفريقيا ومنطقة الشرق الأوسط وما زالت متواصلة، تسميات عديدة منها: ثورة الفيس بوك، الربيع العربي، ثورة الياسمين، ثورة الكرامة وغيرها.. وبالرغم من أحقية هذه التسميات وتوق الشعوب إلى الانعتاق والحرية، فإن شبكات التواصل الاجتماعي لعبت دوراً ريادياً في هذه التحركات الشعبية، كما أن أبطالها كانوا أناساً عاديين من جيل الشباب والمحرومين من أبسط الحقوق المدنية في الحرية والعمل وإبداء الرأي والتجمهر والتظاهر.. ليتحول هؤلاء إلى صحفيين ومراسلين وكتاب في لحظة من الزمن.

وبعد أن أصبح الشأن السياسي متغيّراً أساساً بالنسبة للشبكات الاجتماعية التي أسهمت في دمج التفاعلات السياسية بين عالمين، الأول هو العالم الواقعي والثاني هو العالم الموازي المتمثل في الشبكات الاجتماعية المنتشرة عبر الفضاء الافتراضي، فإن المردود البارز للشبكات الاجتماعية تجلّى بوضوح في النواحي السياسية، ويمكن التدليل على ذلك في ثلاثة محاور تمثّلت في:

¹ وليد رشاد زكي، المشاركة عبر المجتمع الافتراضي، 2016/5/24: digital.ahram.org

(أ) تعبئة الرأي العام:

تلعب الجماعات المنتشرة في الشبكات الاجتماعية دوراً فعالاً في تعبئة الرأي العام تجاه بعض القضايا السياسية¹، حيث تقاس قوة الحركات الاجتماعية بقدرتها على تعبئة العديد من المطالبين بالحقوق بما يشكل مصدر ضغط والسعي نحو تحقيق الأهداف. وفي هذا السياق أشار الفارو Veronica Alfaro، إلى أن الإنترنت له القدرة على تعبئة الجماهير من خلال الارتباطات المتشكلة بين الأفراد في إطاره ومن خلال رسائل البريد الإلكتروني. ويتأكد ذلك مع ما طرحه هابرماس في أن هناك ارتباطاً كبيراً بين القوة والتقنية، وقد أطلق على ذلك اسم التفاعلية التّحادية التي تساعد على تدفق الاتصال، والذي تحقّق بشكل فاعل على خلفية أحداث الثورة المصرية؛ فلقد تحوّلت التقنية التي شكّلها الإنترنت إلى قوة اتصالية عبر الشبكات الاجتماعية سمحت بتعبئة الرأي العام داخل تفاعلات الفيس بوك للمطالبة بالحقوق المنقوصة في الواقع²، والدليل على ذلك أن هناك حركات اجتماعية مثل حركة شباب 6 أبريل في مصر، استغلّت الفضاء الافتراضي في التحريض على الإضراب والتحوّل من السياق الافتراضي إلى السياق الواقعي. من ناحية أخرى، فتحت الشبكات الاجتماعية مجالاً جديداً للدعايات الانتخابية وطرح البرامج الانتخابية، حيث تكوّنت جماعات عبر شبكة الفيس بوك على المستوى المحلي في عدة دول لنشر البرامج الانتخابية، وجمع التأييد الشعبي، وبذلك أضحت الشبكات الاجتماعية بوابات للممارسة السياسية. وقد ظهر هذا الاهتمام بالسياسة مع ظهور الموجة الثانية للشبكات الاجتماعية، وعلى استحياء في البداية، ثم ازداد صيت الشبكات الاجتماعية ومردودها في ممارسة السياسة على الأصعدة المحلية.

(ب) ظهور المواطنة الافتراضية:

فتحت الشبكات الاجتماعية المجال أمام ممارسة قضايا المواطنة عبر الإنترنت، وهي الظاهرة التي أطلق عليها اسم المواطنة الافتراضية Virtual citizenship. ففي ظل التوتّرات التي تعانيها الدولة القومية، وتقلص الحقوق السياسية، وعدم مصداقيتها - إلى حد ما - في السياقات الواقعية للمجتمعات العربية، يصبح المجتمع الافتراضي مجالاً لممارسة حقوق المواطنة، والمطالبة بالحقوق السياسية³. وهذه الحقوق المنقوصة للمواطنة على الصعيد الواقعي هي ما دفع ببعض الأفراد إلى المجتمع الافتراضي للتحصن بمواطنة جديدة يمارسون من خلالها الحقوق والواجبات، وتتحرك هذه المواطنة الجديدة على متّصل طرفه الأول الدولة القومية، وطرفه الثاني السياق العالمي الذي شكله المجتمع الشبكي⁴.

¹ وليد رشاد زكي: الشبكات الاجتماعية. محاولة للفهم، مرجع سابق.

² Comparing Social Movements In The Virtual Public Sphere, From Silence And Disruption To Veronica Alfaro, And Global Voices, available at : <http://journal.webscience.org/>

³ وليد رشاد زكي: الشبكات الاجتماعية. محاولة للفهم، مرجع سابق.

⁴ وليد رشاد زكي: من التعبئة الافتراضية إلى الثورة، 2016/5/24، digital.ahram.org.eg

(ج) تفعيل دور المجتمع المدني:

تسهم الشبكات الاجتماعية وتنميتها في السياقات العالمية ومردودها المحلي في زيادة تفعيل دور المجتمع المدني، حيث أن هناك العديد من منظمات المجتمع المدني قد بنت لها قواعد في المجتمع الافتراضي عبر الشبكات الاجتماعية. إذ تستغل بعض النقابات والجمعيات الأهلية الشبكة في زيادة التواصل بين أفرادها، ودعوة المستفيدين إلى برامجها ومشروعاتها.

الفايسبوك والثورات العربية:

لعلّ أبلغ لافتة رُفعت إبّان اعتصامات مصر في ساحة التحرير لافتة كُتب عليها: "فايسبوك على كل ظالم"؛ ومما لا شك فيه أن النموذج الجديد الذي أفرزته توجهات استخدام خدمات التواصل الاجتماعي في المنطقة العربية وزيادة معدلات نمو أدوات التواصل الاجتماعي، والتوزيع السكاني الجديد والنوع الاجتماعي لمستخدمي أدوات التواصل الاجتماعي في المنطقة العربية؛ ساهم في تغيير عملية التواصل الاجتماعي ونمو العلاقات الاجتماعية العابرة للقوميات والحدود... ويرى البعض أن هذه العلاقات الاجتماعية الجديدة أدت إلى تدعيم الحرية والخروج من سلطة الحكومات التي تستبد بالحرريات. وكان دور الإعلام الاجتماعي في الثورات التي اكتسحت المنطقة مثار جدل كبير، حيث تصفها بعض وجهات النظر بأنها المحرّض الرئيسي لتلك الثورات بينما يقلل البعض من دورها ويرى أنها مجرد أدوات كغيرها. ويقول أصحاب هذه النظرية أن الدعوات للاحتجاج في المنطقة العربية انطلقت من موقعي الفيسبوك والتويتر أساسا وكثير من الأرقام تدلّ على ذلك.

هناك اتفاق عام على أن نموذج المجتمع الافتراضي للثورات العربية لابد أن يتمحور حول الآتي:¹

أولاً: هي ردة فعل على وضع قائم، فلم تكن الانتفاضة العربية التي انطلقت شرارتها الأولى من تونس فقط من أجل المطالبة بالحرية والديمقراطية والحقوق الأساسية للإنسان... فالفقر والبطالة كانت هي أيضا من بين الأسباب ولعلها الأهم التي دفعت المواطن العربي إلى الاحتجاج الذي عمّ عددا من البلدان العربية مغربا ومشرقا. فالأمر الذي جعل المجتمعات المحلية الافتراضية أو الجماعات الانترنيتية تلقى رواجاً وقبولا لدى المشاركين على الشبكة في أمكنة ثالثة "رقمية" مثل غرف الدردشة وجماعات الأخبار والبريد الإلكتروني، أو عبر الفايس بوك أو التويتر أو غيرها من المجتمعات المحلية الافتراضية... إذن هي رد فعل واستجابة لجوع الناس وافتقارهم إلى المجتمع المحلي، بعد تفرّق وتفكك المجتمعات المحلية وبروز هوة بين الفرد والدولة التي تخلّت عن أسس العقد الاجتماعي. ولا بد من التأكيد

¹ معن البرازي، مرجع سابق.

أن هذا الفضاء وفّر منفذا مهما لشريحة واسعة من الناس خاصة الشباب كمتنفس للهروب من واقع القمع السياسي والفكري ومن الاستبداد والتسلط والتحكم، وقد أدى الانتشار المتزايد لاستخدام الانترنت إلى تغييرات في تصورات الفرد والمجتمع وإلى زيادة الوعي السياسي والمعرفي وأكثر اطلاعا على الحقوق وأكثر إدراكا لأهمية ما يمكن أن نسميه "القيم العالمية" العابرة للحدود والدول والمتمثلة بالحرية والعدالة الاجتماعية والمشاركة السياسية والشفافية والتداول السلمي للسلطة وحكم القانون والمؤسسات ومواجهة الديكتاتوريات والفساد. لقد أوجدت شبكات التواصل الاجتماعي على الانترنت كالفيس بوك وتويتر أو منافذ التعبير عن الرأي الشخصي كالمدونات أو حتى مواقع تحميل التسجيلات المصورة كاليوتيوب ورفع الصور، فسحة كبيرة من الحرية خاصة في العالم النامي وتحولت إلى جهاز إعلامي لفضح الديكتاتوريات وشنّ حرب نفسية ودعائية عليها وكشف فسادها وتعريتها.

ثانياً: إن التجمعات الافتراضية تشير إلى تجمعات اجتماعية لا مكانية؛ إذ لا يجمع بين أعضائها إطار جغرافي فهي تنطلق لتشمل أفراداً ينتمون إلى هويات وقوميات مختلفة. وهي التي تجتمع حول وسيلة تجمع بين أعضاء هذه الجاليات التي تنتشر في الفضاء الرمزي وهي الشبكة الدولية للمعلومات. وعملت التجمعات الافتراضية بهذا المعنى على نشر مفهوم الديمقراطية لدى الناس، كما تحوّلت أدوات العالم الافتراضي هذه إضافة إلى الإعلام الاجتماعي وأدوات الإعلام الجديد إلى عناصر حاسمة بيد الجمهور في مواجهة الأنظمة الديكتاتورية نظراً لسرعتها وفعاليتها مقارنة بالآلية البيروقراطية في اتخاذ القرار وتنفيذه لدى الأنظمة، ولعدم استيعابها بعد لقدرة الانترنت على إعادة تعريف مفهوم القوة في القرن الواحد والعشرين.

ثالثاً: هناك اتفاق بين جميع المفاهيم على وجود اهتمامات مشتركة؛ بحيث يُشترط لعضوية الفرد في إحدى الجماعات الدخول إلى موقع الجماعة التي تتفق واهتماماته ليتقابل مع أعضاء آخرين من نفس الاهتمام بشكل مستمر أو منقطع. فالوضع الاقتصادي المتردّي في مصر مثلاً كان لزاماً على أغلبية المصريين. ويرى تقرير صندوق النقد الدولي عن الشرق الأوسط وشمال إفريقيا 2011 أن التضخم في الشرق الأوسط لا يزال آخذاً في الارتفاع...

رابعاً: يمكن القول أن هناك تقاطعات بين المجتمعات الحقيقية والمجتمعات الافتراضية، إذ أنه في الغالب يحدث بين المتفاعلين افتراضياً مثلما يحدث في الواقع الحقيقي ولكن ليس عن قرب، يستطيع المنخرط في هذه التفاعلات أن يتّجه بالحديث في الواجهة التي تتناسب اهتماماته واهتمامات المشاركين معه في ذات الجماعة، كما تتيح هذه التجمعات حرية قد لا تكون متوافرة في الواقع المعاش مثلما هي في الحيز الرمزي.

خامساً: دفعت المجتمعات الافتراضية إلى غياب القائد ويدرك المتأمل لواقع التفاعلات الافتراضية أنها لا ترتبط ببنية أو هوية محددة كونها تتم من خلال وسيط إلكتروني وهو الانترنت. وخير مثال على ذلك أن "القائد" غاب عن الثورات

العربية وكذلك الرموز القيادية والأسماء المشهورة فلم نجد أسماء قيادية بارزة في هذه الثورات ولم يدّعي أحد من شباب الثورات العربية قيادة الثورة، ولعل هذه السمة قد توجه الباحثين إلى كشف العلاقة الجدلية بين غياب القيادة الواحدة ونجاح هذه الثورات الإصلاحية على خلاف ما اعتدنا عليه بربط وجود قادة كاريزميين للثورة بنجاح هذه الثورة في التفاعلات الافتراضية.

إسقاطات:

لقد طرحت مسألة الانتقال من المجتمع الافتراضي إلى المجتمع الواقعي تساؤلات كثيرة خلقت رؤى عديدة متناقضة بين من أشاد بالدور الكبير الذي لعبته الشبكات الاجتماعية (الفايسبوك تحديدا) خلال الثورات العربية لدرجة جعلها إعلاما بديلا وسلطة خامسة، وبين من اعتبرها ضربة حظّ كانت حليفة هذه التكنولوجيا التي ليست سوى جزء دخيلا من القضية..

لكنّ ما حقّقه هذا المجتمع الافتراضي الذي نجح إلى حد كبير في تشكيل وعي الفئات التي تتعامل داخله وما لعبه في تشكيل مجموعة من القيم تتحرك على ساحته، كان جديرا بمناقشته وإيلائه جزء من الاهتمام الذي يستدعي بعض الإسقاطات بين ما توصّلت إليه بعض الدراسات التي أخذته على محمل الجد، وبين النزول لأرض الواقع أو الميدان إن صحّ القول قياسا على لغة الثورات.. خاصة وأن نزول الحشد من المجتمع الافتراضي إلى الواقعي لم يكن نزولا شكليّا فقط بل حمل معه من قيم المجتمع الافتراضي الكثير، ويمكن رصد بعض هذه القيم بما تحمله من تلك الإسقاطات ما يلي:

قيمة التحرر: إن فرضية تشكّل المجتمع الافتراضي تقوم بالدرجة الأولى على الحرية، حيث جاءت تلك التجمّعات كردة فعل على وضع قائم طال تحمّله، وبدل أن تكتفي المجموعات الافتراضية بأن تظل حبيسة كونها تجمّعات اجتماعية لا مكانية؛ أخذت تعمل على نشر مفهوم الديمقراطية لدى الناس، كما تحوّلت أدوات العالم الافتراضي هذه إضافة إلى الإعلام الاجتماعي وأدوات الإعلام الجديد إلى عناصر حاسمة بيد الجمهور في مواجهة الأنظمة الديكتاتورية.. وهذا ما كرّس مفهوم الحرّية التي لم تتوفّر في واقعهم المعاش مثلما هي في الحيز الرمزي.. وبالفعل تحقّقت هذه القيمة الافتراضية في أرض الواقع بعدما أصبح التمرد أبرز سماته.

قيمة تفتت القيادة: لعل أبرز سمات الحركات الاجتماعية سواء في المجتمع الواقعي أو المجتمع الافتراضي هو العمل الجماعي، ولأن التفاعلات الاجتماعية تتّسم على المستوى الافتراضي بتعددية المراكز وتبادلها؛ فهذه العلاقات لا مركز لها، وبالفعل تجسّد هذا بشكل ملموس عندما غاب القائد خلال الثورات العربية وكذا الرموز القيادية حيث كان الشعار الأساسي لها أن الكلّ واحد.

قيمة المواطنة: لم ترتبط تلك الجماعات بهوية بذاتها أو قومية معينة ولكنها تجمع بين أفراد ينتمون إلى هويات مختلفة وقوميات متعددة، كل ما يجمعهم فقط هو اهتمامات مشتركة، ولأنهم لم يشعروا قبلاً بقيمتهم كمواطنين كان الفضاء الافتراضي الملاذ لهم وبعدها تحقق إشباعهم لذلك لم يكن لهم من بدّ إلا أن يحدّد مصيرهم الحال المشترك وهو الوضع الاقتصادي المتردّي الذي جعلهم ينتفضون ليعبروا عن مواظنتهم المفقودة.

قائمة المراجع:

- بايوسف مسعودة: الهوية الافتراضية: الخصائص والأبعاد - دراسة استكشافية على عينة من المشتركين في المجتمعات الافتراضية، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، عدد خاص، ص 468.
- ¹ وليد رشاد زكي: المجتمع الافتراضي. نحو مقارنة للمفهوم، أفريل 2009، digital.ahram.org
- ¹ Mathewj Smith , Community Building Strategies in online fanzines , journal of Popular culture vol 33 , issue 2 , 99, P 87.
- ¹ معن البرازي: البحث عن نموذج تواصل الربيع العربي، 2014/2/4: www.academia.edu
- ¹ وليد رشاد زكي: المجتمع الافتراضي. نحو مقارنة للمفهوم، مرجع سابق.
- ¹ نبيل علي: الثقافة العربية وعصر المعلومات: رؤية لمستقبل الخطاب الثقافي العربي، عالم المعرفة، عدد 265، 2001، ص 105.
- ¹ وليد رشاد زكي: المجتمع الافتراضي. نحو مقارنة للمفهوم، مرجع سابق.
- ¹ جلال علي الأعرجي وروباب راسم كاظم: المجتمعات الافتراضية واقع جديد، لارك للفلسفة واللسانيات والعلوم الاجتماعية، العدد 8، 2012، ص 152.
- ¹ علي محمد رحومة: علم الاجتماع الآلي - مقارنة في علم الاجتماع العربي والاتصال عبر الحاسوب، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2008، ص ص 85-86.
- ¹ Lee, Heejin & Varey: Richard, "Analysing Cultural Impacts of Computer-Mediated Communication in Organisations", research publications, C.Ess and F. Sudweeks (eds). Proceeding Cultural Attitudes Towards Communication and Technology, University of Sydney, Australia, 1998, p 322.
- ¹ بهاء الدين محمد مزيد: المُجتمعات الافتراضية بديلاً للمجتمعات الواقعية - كتاب الوجوه (facebook) نموذجاً - جامعة الإمارات العربية المتحدة، 2014/1/21: www.abegs.org
- ¹ وليد رشاد زكي، مرجع سابق.
- ¹ بهاء الدين محمد مزيد، مرجع سابق.
- ¹ علياء سامي عبد الفتاح: الانترنت والشباب: دراسة في آليات التفاعل الاجتماعي، دار العالم العربي، القاهرة، 2014، ط3، ص ص 42-43.
- ¹ وليد رشاد زكي: الشبكات الاجتماعية. محاولة للفهم، 2014/1/21: digital.ahram.org
- ¹ مازن الضراب: مواقع الشبكات الاجتماعية وطريقة عملها، وحدة المعرفة، 15 أفريل 2013: www.aram.grp.com

¹ خالد غسان يوسف المقدادي: ثورة الشبكات الاجتماعية، دار النفائس للنشر والتوزيع، الأردن، 2013، ط1، ص24.

¹ عبد الله ممدوح مبارك الرعود، دور شبكات التواصل الاجتماعي في التغيير السياسي في تونس ومصر من وجهة نظر الصحفيين الأردنيين، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في الإعلام، جامعة الشرق الأوسط، 2011، ص ص 31-32.

¹ Chang woo Young, the internet, alternative public sphere and political dynamism: Korea s non- gaek (polemist) websites, the pacific review, vol 81, no3 September, 2005, p396-399.

¹ Zizi Papache rissi, the virtual sphere, the internet as a public sphere, new media and society, vol 4, no1, 2002, p15-18.

¹ وليد رشاد زكي، المشاركة عبر المجتمع الافتراضي، 2016/5/24: digital.ahram.org

¹ وليد رشاد زكي: الشبكات الاجتماعية. محاولة للفهم، مرجع سابق.

¹ Comparing Social Movements In The Virtual Public Sphere, Veronica Alfaro, Electro .From Silence And Disruption To Cyber activism 2.0: Cyber Zapatistas And Global Voices, available at : <http://journal.webscience.org/hippies>

¹ وليد رشاد زكي: الشبكات الاجتماعية. محاولة للفهم، مرجع سابق.

¹ وليد رشاد زكي: من التعبئة الافتراضية إلى الثورة، 2016/5/24: digital.ahram.org.eg

¹ معن البرازي، مرجع سابق.